السلسلة
علـوم إنسانيـة واجتماعيـة ودينيـة

نفـزاوة
(الجنوب الغربي التونسي)
تـاريـخ وتـراث

جمع النصوص وقدّم لها:
د. محي الدين لاغة

أعدّها للنشر:
أ.د. المنجي بورقو





مركز النشر الجامعي

يحتوي هذا الكتاب على أعمال ندوة "تاريخ نفزاوة وتراثها" التي تم تنظيمها بقبلي أيام 9 و10 و11 نوفمبر 2017.

بالتعاون مع:

- مخبر "النخب، المعارف والمؤسسات الثقافية في المتوسط"
- المندوبية الجهوية للثقافة بقبلي
- المندوبية الجهوية للتعليم بقبلي

وبدعم من:

- جمعية صيانة مدينة قبلي
- جمعية "توريس الثقافية" بالمنصورة

قائمة اللجنة العلمية التّي تولّت تقويم البحوث:

- أحمد مشارك، أستاذ جامعي مختصّ في التاريخ القديم
- إبراهيم جدلة، أستاذ جامعي مختصّ في التاريخ الوسيط
- محمد الأزهر الغربي، أستاذ جامعي مختصّ في التاريخ المعاصر
- منجي بورقو، أستاذ جامعي مختصّ في الجغرافيا الطبيعيّة

تولّى إعداد الندوة وتنظيمها:

محي الدين لاغة وعلي عون

الفهرس

الفصل الأوّل

نفزاوة: المجال ومصادر البحث

الفصل الثاني

في تاريخ نفزاوة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي

الفصل الثالث

جوانب من تراث نفزاوة

ملاحظات أوليّة حول التّعمير ببلاد نفزاوة

النوري بوخشيم

أستاذ مساعد، جامعة القيروان، وحدة بحث UR16ES01

مقدّمة

نتناول في هذه الورقة بعض الإشكاليّات المتعلقة بالتّعمير والتوطن في بلاد نفزاوة خلال العصرين الوسيط والحديث من خلال مقاربة ميدانيّة. وفّرت النصوص المصدرية الجغرافية والنصوص الإباضية وكتب رحلات الحج معلومات غزيرة مكنت من دراسة بعض الجوانب من تاريخ مجال بلاد نفزاوة. على مستوى البحث الميداني، لا تزال الدراسات الأثريّة في بداياتها. وعلى قدر ثراء المجال من الناحية الأثريّة، تبرز صعوبات منهجية وتقنيّة في العمل الأثري نظرا لطبيعة المجال الواحي والصحراوي والتحولات التي عرفها. تحتاج إذن عمليّة إعادة تركيب المشهد التعميري إلى التوسّل بالتقنيّات الحديثة للبحث الأثري الميداني والاستئناس بمقاربات علمية تيّسر فهم خصوصيّة التعمير وعلاقة الإنسان ببيئته وما نتج عن ذلك من ثقافة ماديّة.

I. مجال استراتيجي في مفترق الطرق: نفزاوة في قلب إفريقيّة بين الشطوط والعرق والجبل

تحتل نفزاوة موقعا استراتيجيا في خريطة البلاد التونسيّة وتتفرّد بخصائص طبيعيّة مميزة تجعلها منفتحة على ثلاثة اتجاهات على كل الجهات وتُفردها بوحدات تضاريسيّة متنوعة ومتكاملة. فهي تقع في مفترق الطرق

التجاريّة والأدفاق البشريّة. غربا، تتصل بلاد نفزاوة بوادي سوف وهو بمثابة الامتداد الطبيعي والعمق البشري لها. أما جنوبا فهي منفتحة على الصحراء، وهنا تُؤمِّن بلاد نفزاوة باعتبار طبيعة مجالها الواحي منطقة انتقال بين جنوب صحراوي وشمال يتدرّج فيه المناخ والأشكال التضاريسيّة (الشطوط والجبال السهوب). كما ربطت هذه المنطقة علاقات مع سلسلة جبال الظّاهر (مطماطة ودمّر ونفوسة). وتتّصل بقابس وسهلي الأعراض والجفارة عبر ممرّ يفصل بين جبلي مطماطة وطباقة تخترقه طرقات قديمة تواصل استغلالها خلال العصرين الوسيط والحديث وإلى اليومّ[1]. وتختزل طبيعة البيئة النفزاويّة عناصر محفزة على الاستقرار فهي تنقسم إلى قسمين:

▪منطقة قريبة من الشطوط، شرقي وشمال شرقي بلاد نفزاوة، تكثر فيها الينابيع الباطنيّة نشأت حولها ما يسمّى محليّا "الزّيرة" أي واحات نخيل نشأ حول بعض هذه الجزر تجمّعات سكانية أو قُرى مستقلة بذاتها. سُمّي هذا المجال ببلاد "العيون" أو بلاد "البحاير" وهي منطقة تتميز بتوفر المياه الباطنيّة القريبة من سطح الأرض تبرز بها ينابيع المياه العذبة إلى السطح في الكثير من المواضع[2].

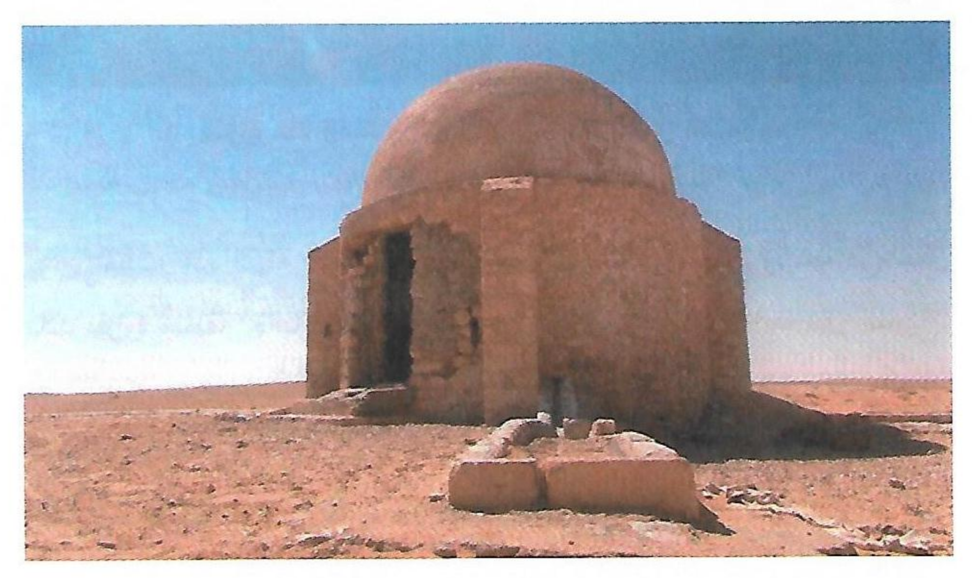
▪المنطقة الثانية هي بلاد الأبيار تقع غربي وجنوب غربي بلاد نفزاوة حيث تكون المائدة المائيّة الباطنيّة أكثر عمقا ونجد بها عددا كبيرا من الآبار "الأبيار" التي تنتظم وفق احتياجات السكان إما على الطرقات والمسالك أو في مجالات الرعي أو قرب القرى.

---

[1] بوخشيم (النوري)، 2016، ص39-72.

[2] قسّم محمد الجزيراوي قرى بلاد نفزاوة إلى مجموعات هي: بلاد الزوي أي الزوايا وقرى منطقة العناد وقرى منطقتي رأس العين والبحاير وقرى منطقة الشارع والقرى التي تكونت في مجال دوز والفوّار. انظر: الجزيراوي، 2017.

يمثّل الماء والواحة إذن عنصرين أساسيين في نشأة وتواصل التعمير في بلاد نفزاوة. في منطقة الواحات، مثّلت ينابيع المياه نقاط جذب ملائمة لنشأة غابة النخيل وحولها شبكة من القرى. أما في المنطقة الصحراوية فإن الآبار تمثل واحدة من الإحداثيّات التي ينتظم حولها الوجود البشري. لا نملك إحصاء دقيقا لهذه الآبار ولكن بعض المحاولات في هذا الاتجاه تبيّن أهميّة الآبار من حيث العدد وانتظامها على إيقاع محاور وطرقات التجارة، فضلا عن طرافة وتنوع هندستها[1].



صورة عدد1: مثال عن الآبار المسقفة بقبة

[1] من المصادر الهامة التي نعتمد عليها في دراسة المجال الصحراوي بعض أهل الصحراء العارفين بأسرارها وبمسالكها وطرقاتها. الهادي بالحاج إبراهيم من المراجع الهامة المشهود لها بمعرفة المجال. وقد حاول تقديم إحصاء أوّلي للآبار وطريقة انتظامها وقد بيّنت النتائج الأوليّة لهذا الجرد انتظام الآبار على الطرقات نحو الغرب أي الجزائر أو نحو غدامس أو غربا على الطريق بين نفزاوة وقابس. يمكن أن نسوق هنا بعض الأمثلة:

- الطريق الرابطة بين دوز والأراضي الجزائرية:بئر الغردف، بئر ثوابة وبئر شوشة النّاقة
- الطريق الرابطة بين دوز وقصر غيلان: بئر عبد الله، بئر حقيف وبئر العقلة
- الطريق الرابطة بين دوز والعرف: بئر الغردقاية، بئر طويل العذارى وبئر لدنس
- شرق وجنوب دوز نذكر بعض الآبار: بئر عقارب، بئر + فسقية (برج لصنام)، بئر نقوى، بئر بنعيسى، بئر السلطان، بئر ترسين (أو فسقية)، بئر قصر غيلان بئر الشهبة بئر الطويلة بئر الجنين.



صورة عدد 2: مثال عن آبار الربايع في عمق الصحراء

مثّلت هذه البيئة المتنوعة والغنيّة بعوامل الجذب عاملا رئيسيّا في جعل بلاد نفزاوة منطقة جالبة ومشجعة على الاستقرار منذ عصور ما قبل التاريخ. فقد أثبتت الدّراسات الأثريّة أن المشهد الطبيعي قد تغيّر بشكل كليّ، وأنّ المنطقة الواقعة جنوب الشطوط كانت تتخلّلها سباخ ونقاط ماء عديدة بالإضافة إلى الغطاء النباتي الذي كان أكثر كثافة مما شجع إنسان ما قبل التاريخ على الاستقرار في مجال المنطقة التي نراها اليوم صحراوية وزحفت عليها الرمال. بيّنت النتائج الأوليّة لحملات الاستكشاف الأثري التي يقوم بها فريق بحث تونسي- إيطالي[1] كثافة التوطّن البشري من خلال المواقع التي كشفت عنها الحفريّات أو تلك التي عثر عليها بسبب انزياح الرمال وتحركها دوريّا.

بالنسبة إلى عصور فجر التاريخ فإن الاستقرار لا يقل أهميّة عن العصور التي سبقت، نشير هنا إلى الجرد الذي قام به منصور غاقي وفرنسوا

---

[1] Ben Nasr et ali, 2016, p. 1-13 ; Di Lernia et al, 2017, p. 3-19

باريس[1] لمقابر إنسان فجر التاريخ في المجال الممتد بين دوز شمالا إلى جبل مطماطة شرقا. ويبدو أن تواصل هذا الاستقرار في نفس المجال يعود إلى توفّر عوامل تشجّع على ذلك. لا يمكن في هذا المستوى تحديد شكل التوطن في غياب نماذج أخرى من العمارة غير المقابر بمختلف أشكالها. ولاشك أن حملات الاستكشاف في المجال الممتد بين دوز شمالا وجبل الظاهر شرقا والعرق نحو الجنوب الشرقي يمكن أن تقدّم صورة أفضل عن أشكال التعمير في هذا المجال الممتد.

خلال العصور القديمة، بيّنت آخر الدراسات التي اهتمت بالمنطقة أهميّة الحضور القبلي بالمنطقة الصحراوية المتاخمة للعرق من جهة ولخط الليماس الإفريقي[2] من جهة ثانية. فضلا عن القبائل التي كانت تستوطن مجال الواحات الحالي، كان لقبائل *Les Arzuges* حضور لافت ودور هام كحلقة وصل بين عمق الصحراء والواحات وقد كانت لروما علاقات تبادل مع هذه القبائل[3]. أما المظهر الماديّ لوجود التعمير في هذا المجال فهو العدد الهام من المواقع الأثريّة التي تعود إلى الفترة الرومانية منها تلك التي تمثّل عناصر من الاستحكامات الدفاعية لخط الليماس[4] أو المنشآت المائيّة في الأودية. تواصل التوطين خلال العصرين الوسيط والحديث إذ مثّلت بلاد نفزاوة وواحاتها منطقة جالبة للسكّان ومشجعة على الاستقرار[5] وهاضمة لكل الطرز المعمارية التي

---

[1] Ghaki M. et Paris F,2013, p. 49-66.

[2] Lefi M., .2016

[3] يبدو أن قبائل التخوم الصحراوية قد قامت بدور الوساطة التجارية بين الصحراء ومدن–موانئ الساحل الشرقي أو الشمال بالتالي تعاملت مع السلطة الرومانية الحاكمة عصرذاك والمتحكمة في شرايين اقتصاد البلاد.

[4] Trousset P., 1974.

[5] حول التوطن ببلاد نفزاوة والتركيبة البشرية خلال العصر الوسيط يمكن العودة إلى:

Prevost V., 2012, p. 361-377.

لاغة (محي الدين)، 2015،: ص 105–118؛ لاغة (محي الدين)، 2007: ص 19 –38.

وفدت عليها إما من المجالات شبه الصحراوية المجاورة لها (وادي سوف وبلاد الجريد والجبل) أو من الطرز المعماريّة الرسميّة.

نجد لموقع بلاد نفزاوة في مفترق الطرق التجارية انعكاس مباشر على شكل التّعمير بالمنطقة. فهي نقطة عبور وممرّ في كل الاتجاهات. ترتبط بجبال الظاهر بمسالك وطرقات كانت من أسباب تيسير الهجرات وتنقّل مجموعات قبليّة في الاتجاهين[1]. هذا التجاور الجغرافي فرض علاقات تبادل منافع (زيت الجبل مقابل تمر الواحات بنفزاوة) وتبادل الحماية ضد مجموعات أولاد يعقوب وورغمة. فقد عثرنا في جبل مطماطة على بعض المؤشرات الأثرية والطبونوميّة الدّالة على صلات الجبل ببلاد نفزاوة. بحوض بني عيسى في مطماطة توجد زاوية تُنسب إلى "الثوامر"[2]. والثوامرمن القبائل الرحّل التي استقرت حديثا برجيم معتوق بعد أن كانت تنتجع في الصحراء. كما استقرّ فرع من "أولاد ميرة"[3] في القلعة التي تُنسب إليهم اليوم وهي قلعة ميرة التي تُعدُّ واحدة من أهمّ قلاع القسم الشمالي لجبل مطماطة ومركز التّوطن بوادي بني عيسى إلى جانب قصر اللآلي[4]. في جبل دمّر تتحدث بعض الوثائق عن هجرات لمجموعات صغيرة من الدويرات استقروا في نفزاوة خلال فترات الجفاف. بقي أن نحدد المواضع التي استقر فيها هؤلاء. لكن المعطيات الشفويّة الأولية التي استقيناها تفيد أنّ بعض القرى بنفزاوة تؤكد أنّ لها أصول بربريّة مثل نويّل أو القُلعة.

[1] توجد نفزاوة أيضا بين معاقل الإباضيّة أي بلاد الجريد ووادي سوف من الشمال والغرب والجبل من جهة الشرق.

[2] بوخشيم (النوري)، 2017، ص. 51.

[3] يوجد فرع لأولاد ميرة ببلاد نفزاوة. عدد من الإشارات المصدرية تذكر قدوم أهل الجبل إلى نفزاوة لشراء التمر (مثال زمرتن) انظر: بوخشيم (النوري)، 2015، ص 57-76.

[4] بوخشيم (النوري)، 2017، ص ص 39-58.

بشكل عام، أثبتت الأعمال الأكاديميّة التي أُنجزت حديثا حول بلاد نفزاوة وجود عدد هام من القرى ودعّمت ما تضمنته النصوص المصدريّة التي أشارت إلى أن بلاد نفزاوة تعُدُّ عددا هائلا من القرى[1]. يمثّل بعض تلك المواقع مثالا لتواصل التعمير منذ العصر القديم ونقاط ارتكاز في شبكة التعمير القديمة مثل طرة وتلمين أو الوسيطة مثل بشري أو تينزاج ودرجين.

تستدعي عمليّة إعادة تركيب المشهد التّعميري، خاصة بالنسبة إلى المجال الصحراوي وشبه الصحراوي، الاستئناس بما ورد في المصادر وإجراء تقاطعات مع معطيات الميدان. ذكرت النصوص الإباضيّة عددا من القرى والمواقع وهو دليل على أهميّة التعمير خلال العصر الوسيط. في المقابل تحتفظ الذاكرة الجماعيّة بأسماء بعض المواقع التي اندثرت ثبت ذكرها في مصادر أخرى مثل الخرائط القديمة التي دوّنت أسماء مواقع ومواضع مثل "دوز الأعلى" أو "أوفرة". في هذا المستوى من البحث، نفتقر إلى معطيات دقيقة عن حجم القرى وشكلها وأهم معالمها التي غمرتها الرمال كما هو شأن غليسيّة أو عوينة راجح (أمّي هندة) وتينزاج أو درجين الخالي. ومن شأن هذه القرى، باعتبار أهمية موقعها وحجم نسيجها القروي، أن تقدّم لنا معطيات كميّة واضحة عن عدد المساكن[2] وتوزعها ومكوّنات النسيج القروي. هذا بالإضافة

---

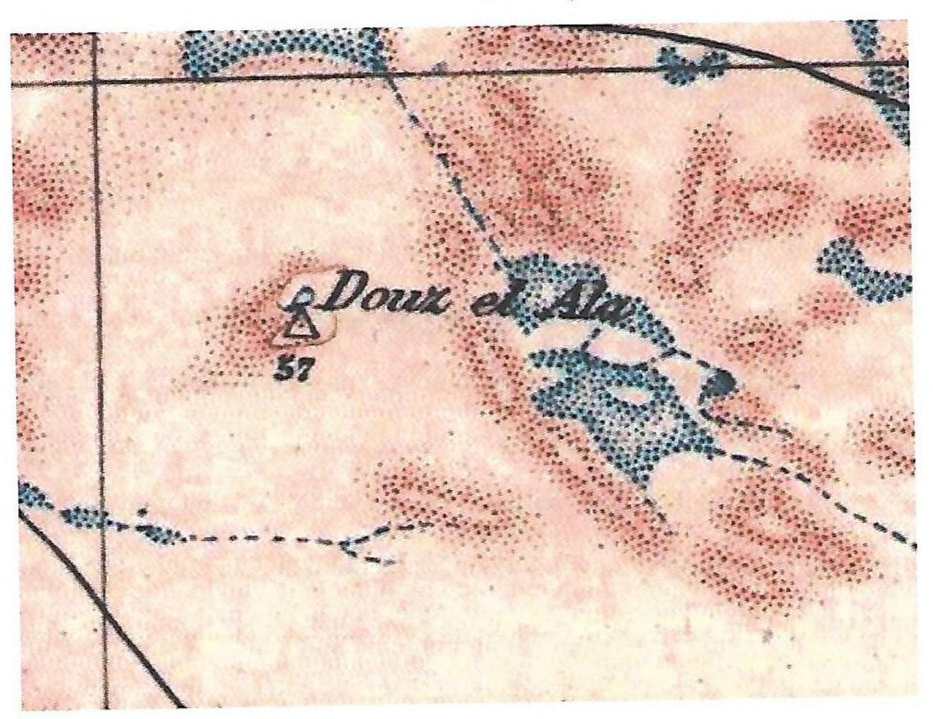
[1] Prevost V., 2012, p. 361-377.

انظر في هذا الشأن محمد الجزيراوي، 2016. وقد بيّنت حملات الاستكشاف الأثري أن عدد المواقع والقرى أكبر بكثير ممّا هو معلوم اليوم خاصة مع ظاهرة زحف الرمال وتراكمها مما أدى إلى اختفاء عديد المواضع التي توارى بعضها تحت زحف الرمال مثل غيدما أو أوفرة أو دوز الأعلى أو القلعة.

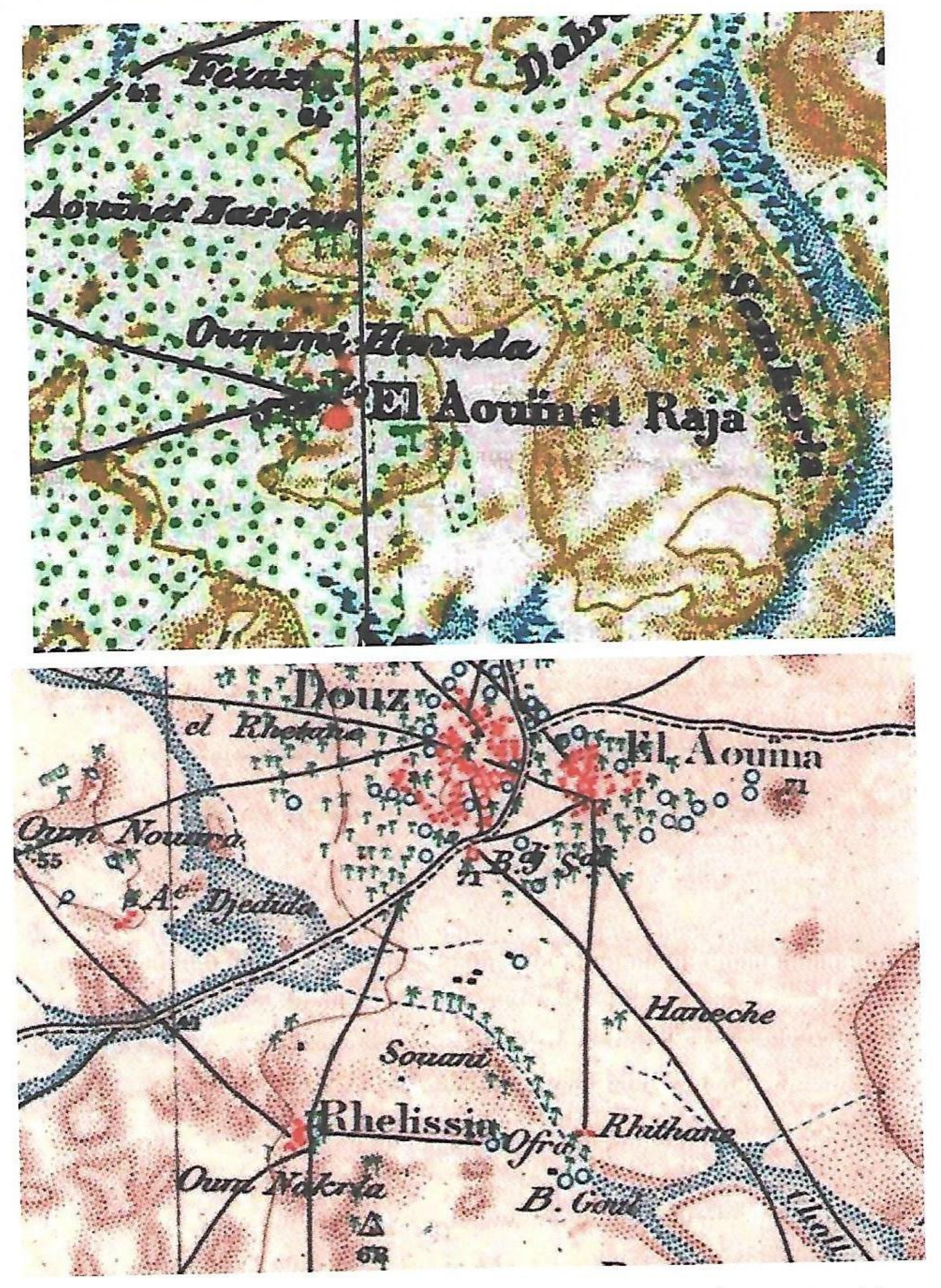
كشفت أعمال تهيئة في القُلعة عن معالم من الواضح أنها نواة لتجمع سكني غمرته الرمال. في المقابل تكشف أعمال النهب والتنقيب العشوائي تباعا على أطلال لعمائر مطمورة تحت الرمال.

[2] كشفت الرمال عن بعض مكونات هذه المساكن مثل الجرار الضخمة التي تحمل زخرفا.

إلى وثائق الأرشيف الخاصّة التي تساهم في الكشف عن أسماء المواقع وعلاقات سكان القرى ببعضهم البعض[1].



[1] من الإشكاليّات الهامة التي يطرحها العمل الأثري في هذا المجال مسألة الانزياحات الطبونومية والتي تترجم على الميدان بتعدد المواقع والقرى التي تحمل نفس الإسم وهي ظاهرة تتكرر مع درجين وغليسية ودوز وغيرها ونجد لذلك عدة تفسيرات إما في تغيير مواقع الاستقرار لأسباب تتعلق بنفاذ المائدة المائيّة أو لتشظي المجموعات وانقسامها على أثر من موقع أو لتزايد ديمغرافي. أما على المستوى المنهجي فنشير إلى أن التعرف على شبكة القرى والتعمير ببلاد نفزاوة تُعدّ من الأولويّات اليوم عبر إنجاز خريطة المواقع الأثرية لتبيّن تطوّر التعمير عبر الفترات.



مقطع من الخريطة الطبوغرافية دوز 1/100000 تشير إلى بعض المواضع المندثرة: دوز الأعلى وعوينة راجح وغليسية: صورة عدد 3 و4 و5

II – دور المعطيات التاريخيّة والبيئيّة في نشأة طرز معمارية وفنية ببلاد نفزاوة من خلال بعض الأمثلة

على المستوى الأثري، يشهد النسيج القروي اندثارا متسارعا، نتيجة تواتر إعادة استغلال مواضع القرى القديمة نظرا لضيق وتقلص الأرصدة العقارية التي تسمح بنشأة وتوسع القرى المعاصرة. أدّت عمليّة إعادة استغلال المواقع القديمة إلى اضمحلال الأنسجة القروية العتيقة التي حلّ محلها معمار جديد بمقاييس ومواد وتقنيات بناء جديدة، وفقدت بالتّالي الخصوصيّات التي كانت تميّز القرية الواحيّة والصحراويّة. يبقى الاستثناء في بعض القرى التي سلمت ولو نسبيّا من الطّمس مثل قرية قبلي القديمة التي رغم الاندثار المتسارع في عمرانها حافظت إلى حدّ ما على تخطيطها القديم[1]. انطلاقا من الملاحظات الميدانية، يُمكّن الجزء الباقي من الأنسجة القرويّة بقرى واحات نفزاوة من استنباط النماذج وتقديم فكرة أوليّة عن خصوصيّات تخطيط القرية الواحيّة[2]. يُقدّم لنا مجال بلاد نفزاوة أمثلة إضافيّة في سياق إشكاليّة تعامل الانسان مع

---

[1] رغم اندثار جل مساكنها ومكوناتها المعمارية فإن مجهود إعادة التأهيل الذي شمل هذه القرية حافظ على قدر قليل من المعالم القائمة ويمكن اليوم تبيّن مواد البناء المميزة وتقنيات البناء التي يمكن أن تعطي فكرة عن تخطيط القرية الواحيةشديد الشّبهبتخطيط القُرى الصحراويّة والواحيّة بوادي سوف أو بغدامس (وجود الساباطات التي تسمّى محليّا الدّرب)، شكل الحوش، استعمال الخشب في البناء، الأزقة والشوارع ألخ.

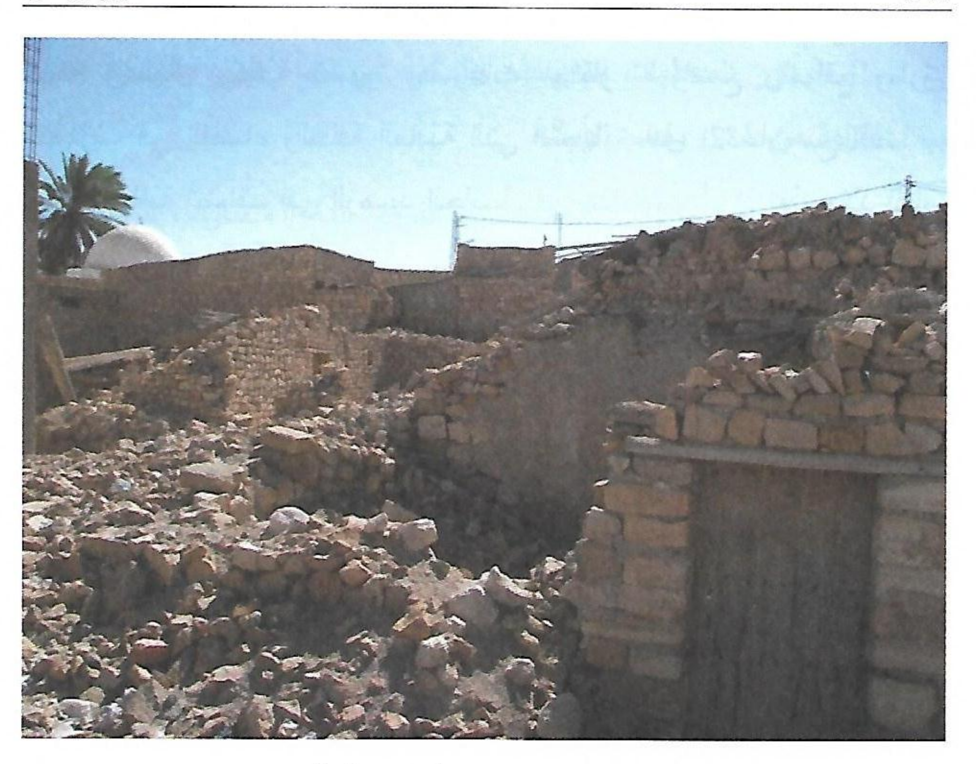
[2] مكّنت الدراسات التي انجزت في مجالات مجاورة من مراكمة رصيد معرفي هام يمكن من خلاله فهم مورفولوجيّة القرية الجبليّة (يمكن العودة إلى كل الدراسات التي أنجزت حول التعمير والمعمار بجبل مطماطة، جبل دمّر، الجبل الأبيض، جبل وسلات، جبل برقو، جبل زغوان) على سبيل المثال انطلاقا من نشأتها وتطورها ومنطق ذلك التطوّر. في الساحل التونسي أيضا أنجزت في رحاب الجامعة التونسية جملة من الدراسات مونوغرافيّة (مساكن، جمّال، المكنين، منزل نور–الداموس، القلعة الكبى، القلعة الصغرى، بني فوناس...إلخ) وتنجز اليوم دراسات تأليفيّة حول نشأة القرية الساحليّة وتطورها وخصوصيّاتها العمرانيّة والمعماريّة، مما يمكّن الحديث عن طراز تعميري خاص له ضوابطه وشروطه التي تنسجم مع التركيبة البشرية واحتياجات البيئة وضغوطاتها. يظلّ هذا العمل في نظرنا في الوضع الراهن من البحث منقوصا في المجال الواحي والصحراوي أو شبه الصحراوي.

البيئة والمجال وكيفيّة تعميره ومسوغات اختيار المواضع والمواقع وطرق التصرّف في الفضاء والثقافة الماديّة التي انتجها تعامل الانسان مع الفضاء، أمثلة إضافيّة تُضاف إلى الرصيد الحاصل في هذا الشأن[1]. إذ تقدّم بلاد نفزاوة مثالا مميّزا عن التعمير والتوطّن ضمن ديناميكية داخليّة خصوصيّة تتداخل فيها شبكة القرى مع الواحات. هنا يخضع التّعمير إلى ديناميكيّة ذاتيّة وخصوصيّة محليّة كان للرصيد التّاريخي والعنصر البشري والبيئة الدّور البارز في تشكيلها.

تقدّم بعض القرى أو ما بقي منها مكشوفا وسلم من زحف الرمال فكرة غير مكتملة عن تخطيط القرية الصحراوية والواحيّة. في قرية تلمين يمكن معاينة بعض المعالم الباقية من التلف تمثل أحواشها التقليدية نماذج لتخطيط المسكن في المجال الواحي وقد عُرفت بجامعها المنسوب إلى عقبة ابن نافع فاتح إفريقيّة[2]. نشأت القرية على أنقاض قرية واحيّة عتيقة شهدت مجدها خلال الوجود الروماني ببلاد المغرب وارتقت إلى رتبة بلدية *Turris Tamellini*.

[1]نرى أنه من الأولويّات ومن الضروري في هذا المستوى من البحث المسارعة بجرد القرى وتوثيق الأنسجة القروية برفوعات طوبوغرافية وهندسية لحمايتها من الإندثار ولتأصيل النماذج المميزة للأحواش والمعالم الدينيّة وللأنسجة القروية.

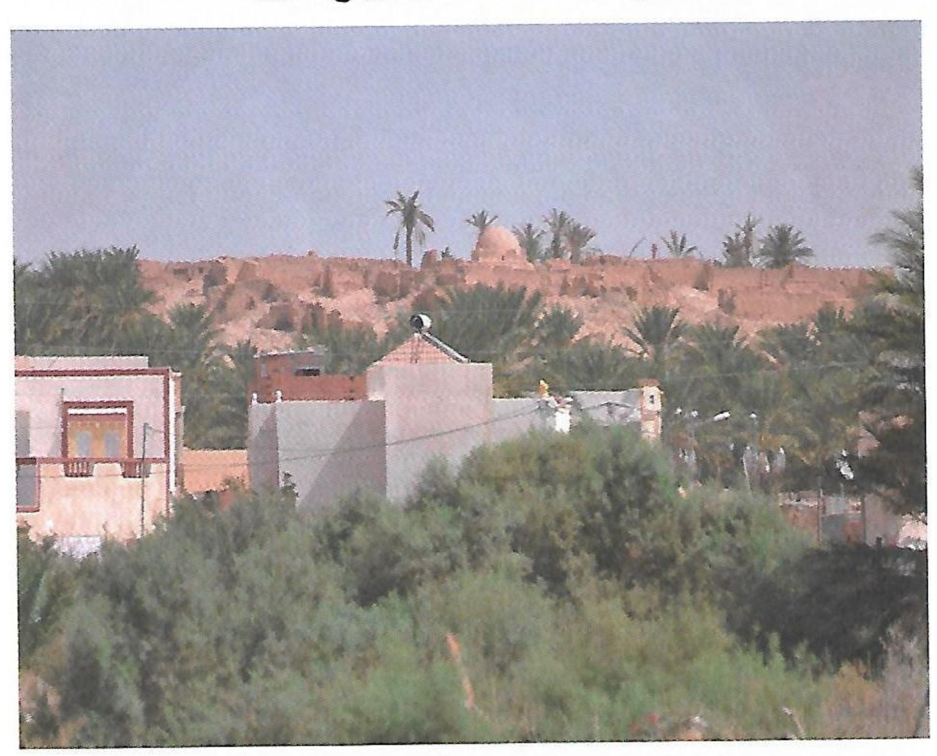
[2] اللواتي (محمّد)، 2017، ص 7-34.



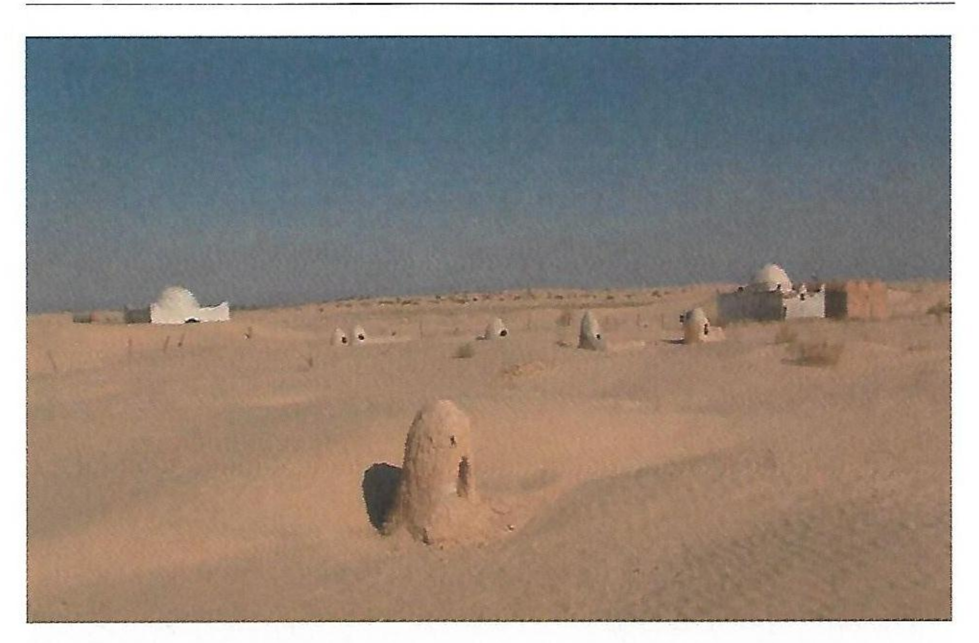
صورة عدد6: مشهد من اندثار نواة قرية تلمين

أما في قرية البلديات وهي المقامة على ربوة وسط غابة من النخيل فنرى نموذجا آخر سلم إلى حدّ ما من التشويه والاندثار. هنا ينتظم المعمار على إيقاع المعالم الدينيّة (مسجد وزاوية) كنواة للقرية حولها نسيج معماري محتشد على مساحة ضيقة. في قرية أمّي هندة أو عوينة راجح، يحتلّ الجامع قمّة الرّبوة، بحيث لا تزال بعض أجزائه ظاهرة رغم زحف الرمال. يشرف الجامع على بقية مكوّنات القرية (الأحواش والمقبرة التي يُغطّى بعضها كثبان الرمال). في قرية درجين الخالي؟ يمكن الوقوف على نفس النموذج وهو بروز الجامع بشكل واضح وإقامته على ربوة تمكّن من الإشراف على كل القرية والمجال المحيط بها. النموذج الأخير الذي يمكن أن نسوقه ويقدم لنا معطيات إضافيّة في هذا الملف هي قرية غليسيّة القريبة من دوز في اتجاه الغرب. يمكّن هذا

الشكل التعميري، أي القرى المقامة على ربى من استنتاج عام حول تخطيط يقوم على اختيار مواقع مرتفعة ومشرفة يكون المعلم الديني (الجامع وفي مرحلة لاحقة الزوايا) في موقع مرتفع ومركزي ثم تتوزّع الوحدات السكنيّة عادة حول النواة وحول الربوة ويراعى الاحتماء عادة من الرياح الغربية.



صورة عدد 7: منظر عام لقرية البلديات



صورة عدد 8: منظر عام لقرية عوينة راجح

صورة عدد 9: منظر عام لقرية غليسية

في الجزء المتاخم للصحراء جنوب غربي الشّط أو ما اصطلح على تسميته "بلاد الابيار" والذّي عُرف بمجال انتجاع عدد من القبائل، كان نمط العيش السّائد يعتمد أساسا على الترحال، والاستقرار هو عمليّة ظرفيّة في الزّمان وفي المكان. ثم تدريجيّا استقرّ أولاد غريب في الفوّار والثّوامر في رجيم معتوق والمرازيق في دوز. وبالتالي لم تُخلّف هذه المجموعات في البدايات عمارة بيّنة يمكن دراستها باستثناء المواقع التي تدلّ أسمائها على التوطن مثل دوز الأعلى.

رغم هذا الشّح في النماذج المعمارية التي خلّفها البدو الرّحل، وقد يُعزى ذلك إلى قصور في البحث الأثري الميداني، إلاّ أن معاينة النماذج التي لا تزال تحافظ على خصوصيّاتها مثل الربايع، بكل ما يحمله هؤلاء من نمط عيش مميّز لهم يقوم أساسا على الترحال المستمر بحثا عن الكلأ والماء، يمكّن من جملة من الاستنتاجات. دون الإسهاب في البحث في تاريخ هذه المجموعات البدوية التي لا تزال تتشبّث بنمط اقتصادي يقوم على الرعي فإنّ المعاينات المباشرة التي قمنا بها في سنوات 2015 و2016 و2017 مكنتنا من الوقوف على جملة من الخصوصّيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة بصدد الاندثار بسبب استقرار هؤلاء إمّا في دوّار الماء بوادي سوف أو في رجيم معتوق في البلاد التونسيّة. من زاوية نظر أثريّة، يوفّر الربايع جملة من الأجوبة التي يطرحها الآثاريّون في دراساتهم حول مستوطنات ما قبل التاريخ وفجر التاريخ[1]، أو النماذج الأولى للمجموعات القبلية التي كانت تستوطن في هذا المجال طوال العصور القديمة إلى حدود بدايات استقرارهم في قرى واحيّة. إنّ معاينة

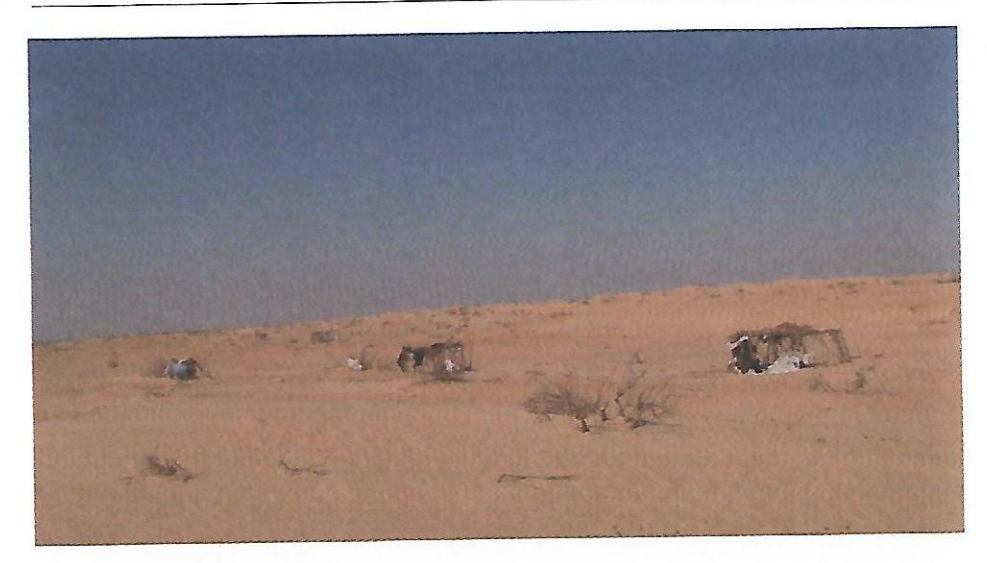
[1] تقوم الرياح في المناطق الصحراوية دوريّا بالكشف عن أماكن استقرار الانسان في الصحراء الأمر الذي يمثل بالنسبة إلى المختصين في عصور ما قبل التاريخ وثائق هامة تمكن من دراسة مستوطنات الانسان ويمكن الكم الهائل من الأدوات الصوانيّة من دراسة الثقافة المادية لتلك العصور. وقد تتواتر وتتكرر هذه المستوطنات لتكشف عن استقرار دائم في مكان ما ويرافق ذلك بعض الأمثلة عن المسكن أو عن أماكن الطهي وغيرها.

مضارب الربايع يعتبر اليوم بمثابة وثائق إثنوغرافيّة على قدر كبير من الأهمية في حدّ ذاتها عند دراستنا لنمط عيشهم ولكن أيضا ووفق المقاربة الإثنوأثريّة تمثّل وثائق جدّ هامّة تساهم في إعادة تركيب الماضي وإعادة تصور نمط عيش المجموعات البشرية السابقة لفترة الاستقرار. يراوح النسق العادي لهؤلاء بين الاستقرار الظرفي في مضارب معلومة (مثال موقع القُتّة أو قْرِيع الطّين أو الميدة). ويُراعى في ذلك عدّة شروط منها وجود الماء في العيون أو في الآبار التي يتم حفرها (مثال بئر البديديّة). فهم بين الترحال والاستقرار. وهو ما أثّر بشكل مباشر على المستوطنات التي يستقرون بها وفي شكل المسكن في حدّ ذاته (تخطيط المستوطنة وكذلك تخطيط المسكن الذي يكون في شكل أخصاص من أعواد وتغطى بالقش). يتم اختيار مكان الاستقرار بعناية ويُراعى في ذلك القرب من الماء واتّقاء الرّيح الغربيّة الحارّة ويعتمد توزيع الأخصاص على تراتبيّة عائليّة وعلى وظيفيّة حيث تستقل كل عائلة (زوج زوجة وأبناء) بخصّ (مسكن) يتمّ تخصيص واحد من تلك الأخصاص للحياة اليوميّة في النهار والقيام بأعمال النسيج. عادة ما يتمّ توجيه الخصّ نحو الجنوب وتقابل المستوطنة زريبة الحيوانات والإبل. الشكل العام للخص هو الشكل الدائري[1] يمكّن الشكل الدائري أو الإهليلجي من مقاومة الرياح القويّة أحيانا أكثر من الشكل ذو الأضلاع المستقيمة. تتكوّن جدرانه الخارجية من أغصان وأعواد صلبة ولا يتم نزعها عند تغيير الإقامة لأنها تمثّل مكان إقامة موسمي يعود إليه النجع في الموسم المقبل.

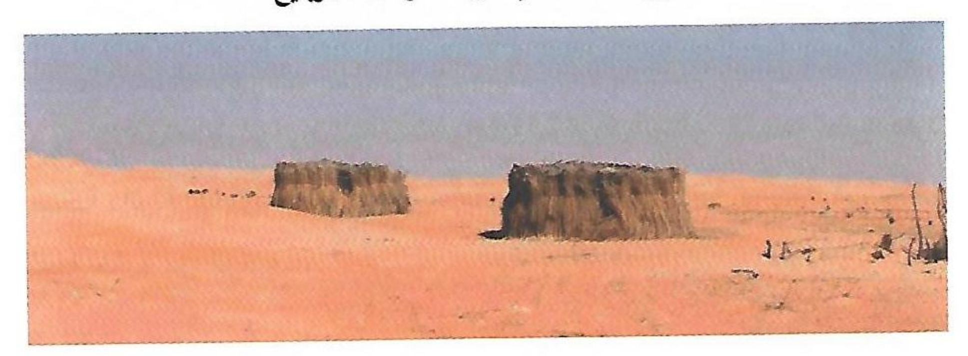
---

[1] منذ عصور ما قبل التاريخ يؤكد المختصون أن المثال الأكثر انتشارا هو مسكن إنسان ما قبل التاريخ الشكل الدائري:

أنظر: Aumassipe G., 2017, p11-20.



صورة عدد 10: إحدى مستوطنات الربايع



صورة عدد 11: أخصاص لسكنى الربايع

عند بدايات استقرار هذه القبائل نشأت مجموعة من القرى[1] نراها اليوم قائمة ضمن شبكة من الواحات المُستحدثة، ولا تختلف من حيث الطُّرز المعماريّة أو من حيث مواد وتقنيّات البناء عن عمارة القرى القديمة المجاورة لها في المجال والتي تشترك معها في الخصوصيّات. يبدو أن البيئة هي العامل الأكثر تأثيرا في عمران وعمارة هذا المجال أي بلاد نفزاوة بمجالاته الواحيّة أو

[1] يبدو أن بعض هذه القرى وُجد سابقا قبل استقرار هذه القبائل ومثّل نقاط ارتكاز موسمي حيث تقضي هذه القبائل جزءا من السنة في وضع استقرار. وعند استقرارها النهائي نشأت شبكة الواحات تدريجيّا.

تلك المتاخمة للصّحراء. فقد أثّرت البيئة المحليّة بشكل مباشر في تشكيل الطرز المعمارية التي سادت[1].

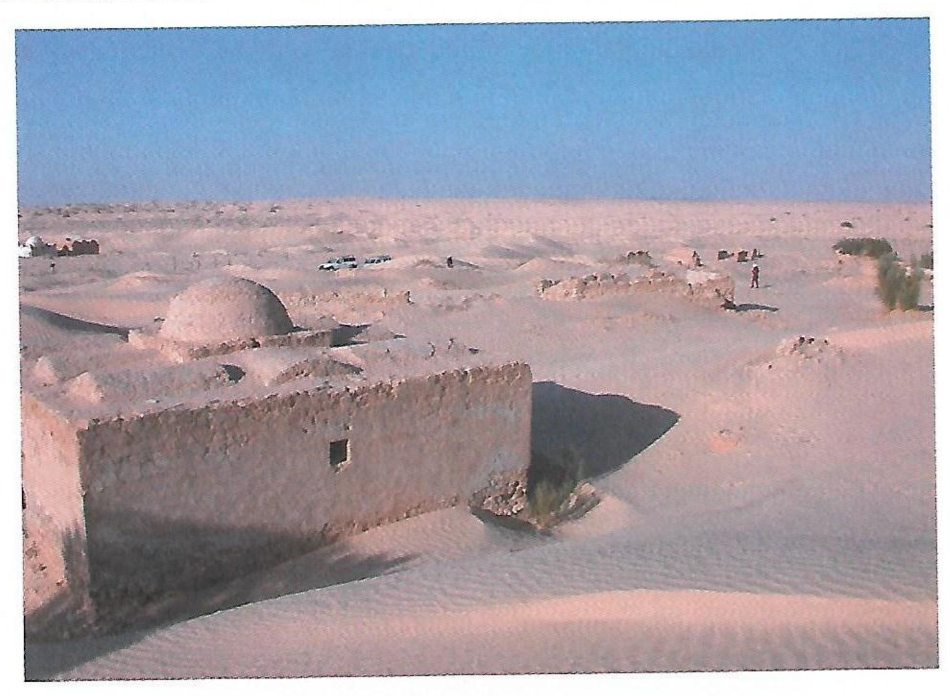
لئن مثلت هذه المنطقة مجالا للتأثير الإباضي لتوسّطها المعاقل التاريخيّة لهذا المذهب، فإنّ تأثير العوامل المذهبيّة في العمارة غير بيّن، ولا يُمكّن ما عيّناه من عناصر معمارية في المساجد القائمة إلى اليوم من تأكيد تأثير المذهب الإباضي في عمارة مساجد بلاد نفزاوة. يجب الإشارة هنا إلى أن المساجد التي سلمت من مجهود الترميم والتوسعة والتجديد عددها ضئيل[2].

يتميّز تخطيط المساجد الأثريّة في بلاد نفزاوة ببروز بيت الصلاة التي تمثّل العنصر الأبرز. في مقابل تضاءل عدد وحجم بقيّة الملحقات المعماريّة المتممّة له. فمسجد عوينة راجح يميل إلى الشكل المربّع يتميّز بنتوء سقفه ببروز الأقبية الطوليّة وتقطع انتظامها قبة مركزّية. يرتكز السقف على عقود نصف دائريّة محمولة على ركائز. أما المحراب فهو حنيّة بسيطة في جدار القبلة خالية من الزخرف.

[1] لم يتم فيما انجز من دراسات الالتجاء إلى أعمال تنقيب دقيقة. إذ يحتاج عدد من القرى إلى عمل أثري مركّز يعتمد على تحديد مجال القرية وإجراء حفريّات ورفع طبوغرافي وهندسي للمواقع والمعالم ودراسة مجهريّة للأنسجة القرويّة وللفضاءات والمعالم ومواد وتقنيّات البناء لتبيّن خصوصيّات العمارة الصحراويّة.

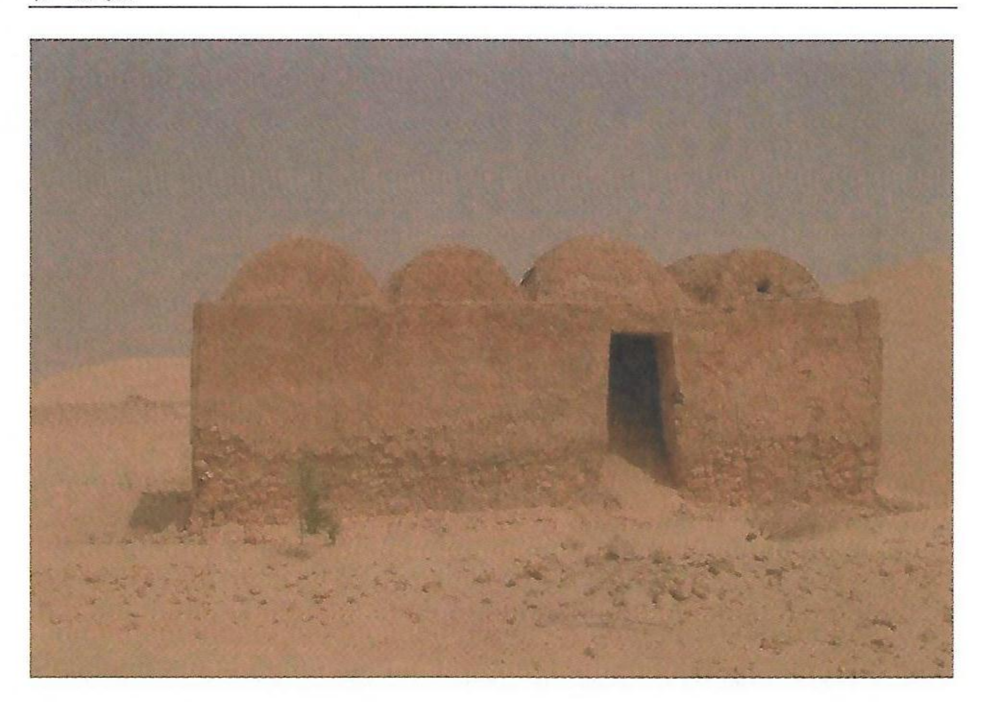
[2] وقفنا عدد على عدد هام من المساجد بقرى بلاد نفزاوة ولكن جلّها معاد البناء أو مرمم إمّا كليّا أو جزئيّا ويمكن أن نسوف أمثلة مساجد قبلّي القديمة وجمنة وتلمين وغيرها.

حول المساجد الإباضيّة يمكن العودة إلى عدّة أعمال: انظر على سبيل المثال: Prevost V., 2009.p. 217-232.



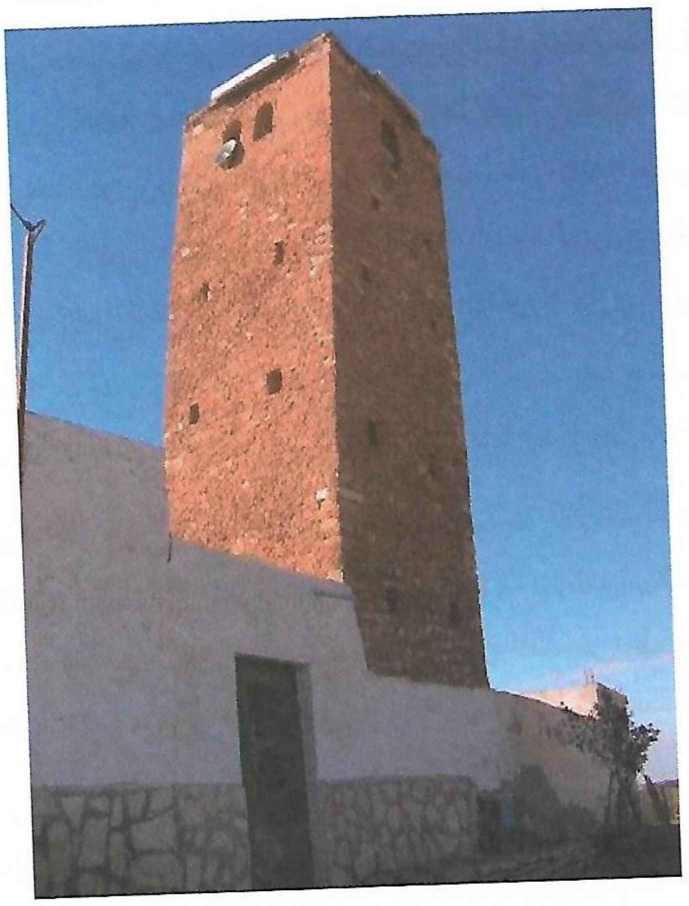
صورة عدد 12: جامع قرية عوينة راجح وامتداد النسيج القروي وسط العرق

كذلك الأمر بالنسبة إلى موقع درجين المفترض حيث لم نلحظ ما يمكن أن يشير إلى اكتساب المساجد في هذا الحيّز الجغرافي أي عنصر مذهبي مميّز في انتظار الكشف عن مساجد أخرى غمرتها الرّمال. وهنا لا بد من الإشارة إلى عنصر الاندثار المتسارع للقرى بأكملها التي طُمرت تحت زحف الرّمال وهو ما يعيق الدراسة الدقيقة لهذا الصنف من المعالم او لمخططات المساجد التي لا يزال بعض أقسامها يبرز فوق كثبان الرمال. هذه المساجد التي عايّناها بدرجين أو بالبليدات أو بزعفران وعوينة راجح تفتقر كلها إلى عنصر المنارة التي لا تمثل هنا عنصر قارًا من مكوّنات المسجد. في قرية أمّي هندة / عوينة راجح لاحظنا وجود الجامع في ربوة مرتفعة نسبيّا عن بقية مكوّنات النسيج المعماري القروي بحيث يشرف على بقيّة مكوّنات القرية وكذلك الأمر بالنسبة إلى مسجد البليدات.



صورة عدد 13: جامع درجين الخالي؟

في بعض المساجد تلفت عناصر معماريّة الانتباه بخروجها النسبي عن السياق المعماري العام ببلاد نفزاوة وتمثل بالتّالي بعض الاستثناءات. في هذا السياق يمكن الإشارة إلى صومعة جامع بازمة وهي من حيث شكلها تبدو متفرّدة ولا نعثر لها على نظير في نفزاوة. تأخذ هذه المنارة شكل البرج المربّع. ويحافظ على هذا التخطيط من الأسفل حيث ترتكز على الأرضيّة بدون قاعدة إلى القمة. يتخلل بدن المنارة طاقات لإدخال النور إلى المدرج اللّولبي الذي يتوسّطها. أقيم المدرج بواسطة أعواد.



صورة عدد 14: صومعة جامع بازمة

من المشروع في هذا المستوى التساؤل عن وظيفة هذه الصومعة؟ فالأمر يتجاوز مجرد النداء إلى الصلاة فيما نعتقد. بل يرتبط بموقع قرية بازمة باعتبارها آخر قرى نفزاوة ناحية الجنوب ومنها تنطلق الطريق نحو المشرق وهي التي تحدّث عنها ومرّ بها ركب الحج الذي وصف العيّاشي مساره في رحلته أواسط القرن السابع عشر ميلاديا[1]. هل كانت هذه الصومعة تلعب دور المنارة التي يستدل بها سالكي الطريق؟ من العسير في هذا المستوى من البحث

[1] العياشي، الرحلة، 2006.

المجازفة بتقديم تأريخ دقيق لهذا العنصر المعماري نظرا لتماثل مواد البناء مع بقية المعالم التي تعتمد جلّها على مواد بناء توفرها البيئة المحليّة بالتالي يبقى التساؤل مشروعا عن وظيفته. قد تكون هذه الصومعة/المنارة عنصر مكمّل لنظام دفاعي يقوم على الإنذار المبكر وتبادل الإشارت، تلعب فيه قرية بازمة وخاصة منارتها دورا متقدما باعتبارها واقعة على التخوم الجنوبية وآخر القرى من هذه الناحية[1].

خاتمة

تجدر الإشارة في خاتمة هذه الورقة إلى جملة من الأفكار ذات العلاقة بإشكاليّة التعمير والمجال والثقافة المادية. أي علاقة الإنسان بالمجال الذي يستقرّ به والبيئة التي يتفاعل معها وما ينتج عن ذلك من صنوف الثقافة الماديّة:

1. إن موقع بلاد نفزاوة من خريطة بلاد المغرب جعل منها ممرّا ومستقرا في الآن نفسه، فهي ممر للطرقات (التجارة أو الحج) التي تأتي من المغربين الأقصى والأوسط، وتتواصل نحو الشرق عبر الحامة أو سيدي قناو، أو الطريق التي تربط نفزاوة وبلاد الجريد بغدامس. وهي أيضا مستقرّ لما توفره بيئتها من مزايا تشجع على ذلك. إنّ وجود بلاد نفزاوة في قلب بلاد المغرب هو ما يفسّر كثافة التعمير بها وقدمه وتواصله عبر الزمن. ولئن كان من العسير

---

[1] أشار محمد الجزيراوي في أطروحته إلى مسألة وظيفيّة ودور القرى في علاقة بالتسميّات المحليّة مثل القُلعة وتطرق إلى أهمية الدفاع المشترك بين القرى والمجموعات البشرية التي توارث هذا النظام الدفاعي منذ عصر الاحتلال الروماني حيث الاستحكامات الدفاعية في إطار نظام اللّيماس الإفريقي. في نفس السياق فإن هذه القرى لعبت أدوارا هامة في التجارة الصحراويّة وأصبح لها شأن مع وجود طرقات تجاريّة بينيّة وأخرى تربط بلاد نفزاوة جنوبا مع الصحراء أو غربا وادي سوف وشرقا نحو قابس. وإذا ما سلّمنا بهذا الأمر تصبح عملية حماية هذه الطرقات أمرا مشروعا ووجود عناصر معمارية منها المنارات ومواقع القرى على المرتفعات وغيرها أمرا ممكنا.

الآن رسم خريطة التوطن والتعمير لكل فترة فإن ما يوفّره الميدان يغري ويدعو إلى ذلك. فالاستقرار يتميّز بكثافة ملفتة منذ عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ ويزداد كثافة وتمددا إلى اليوم.

2. يوفّر الجرد الذي وفرته الدراسات إلى حدّ الآن والقرى والمواقع التي كشفت عنها الرمال مادة جيّدة للقيام بدراسة تفصيليّة حول توزّع التوطّن على المجال المتاخم للصحراء: دواعي الاختيار، خصوصيّات القرية الواحيّة والقرية الصحراوية من حيث مورفولوجيتها، مكوّناتها، تخطيطها وتطوّرها.

3. وفقا للمقاربة الإنثوأركيولوجيّة، تمكّن مستوطنات وسلوكيّات العائلات القليلة من الربايع التي لا تزال تتشبث بنمط عيش الترحال، مادة إثنوغرافية وأثرية (السلوك، نمط العيش، العلاقة مع الصحراء، النمط الاقتصادي، الأصول، والثقافة الماديّة) على قدر كبير من الأهمية في إعادة تركيب مشاهد التعمير القديمة بالمجالين الواحي والصحراوي.

4. على مستوى الطرز المعماريّة، وفي غياب أدوات تأريخ دقيقة وحفريّات منهجية واشتغال على الخزف وغيره، تكشف معالم بلاد نفزاوة عن مثال آخر عن تفاعل الانسان مع البيئة وما للبيئة (المناخ، الواحة) من تأثير في مواد وتقنيات البناء فضلا عن شكل المسكن وخصوصيّاته.

5. إنّ الاشتغال على هذه الأنماط والطرز من التّعمير ومن المعمار تحتاج أيضا إلى حماية وتوثيق وتأصيل، قصد حمايتها من الاندثار في سياق تتسارع فيه التحولات حتى لا نفقد نمط للعيش يختزل قدرة الانسان على التفاعل مع البيئة وما ينتجه ذلك من صنوف الثقافة الماديّة التي أصبحت اليوم نادرة وفي انقراض.

قائمة الببليوغرافيا

العياشي (عبد الله بن محمد)، 2006، **الرحلة العيّاشيّة، 1661-1663**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسلمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، جزئان.

اللواتي (محمّد)، 2017، **بعض المعطيات الأثريّة والأرشيفيّة حول جامع سيدي عقبة بتلمين**"، عبد اللطيف المرابط نشر، أنماط العيش ببلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة، أعمال الندوة الرابعة للمخبر البحث "اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش في بلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة" سوسة 04-05-06 ماي 2017، ص 7-34.

لاغة (محي الدين)، 2015" **نفزاوة من قبيلة إلى بلاد**"، عبد اللطيف مرابط (نشر) أعمال الندوة الأولى مخبر اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش، الجغرافيا التاريخية في المغرب القديم والوسيط: واقع البحث وآفاقه، سوسة 2015، ص 105-118.

لاغة (محي الدين)،2016 "**محاولة لرصد التحولات الديمغرافية بنفزاوة خلال الحقبة الوسيطة**"، عبد اللطيف مرابط (نشر) أعمال الندوة الدوليّة الثالثة لمخبر اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش، التعمير ببلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة، تونس 2016.

الجزيراوي (محمد)، 2016، **المسكن التقليدي بقرى واحات نفزاوة (الجنوب الغربي التونسي)**، أطروحة دكتورا في علوم التراث، مرقونة ومودعة بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.

الجزيراوي (محمد)، 2017، **قرى واحات نفزاوة: التاريخ والجغرافيا والمعمار**، المغاربية للطباعة والنشر، تونس.

بوخشيم (النّوري) 2017، "**بعض مظاهر التوطن وتطوره بالقسم الشمالي لجبل مطماطة:** مجال بني عيسى"، عبد اللطيف المرابط (نشر)، التّعمير ببلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة، أعمال الندوة الثالثة لمخبر اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش خلال العصرين الوسيط والقديم، سوسة 2016، ص 39-58.

بوخشيم (النوري)، 2015، "**قراءة في بعض مظاهر التعمير بقرية زمرتن بجبل مطماطة.**" جعفر بن نصر والنوري بوخشيم (نشر)، السهل والجبل بتونس والمتوسط، أعمال ندوة قسم علم الآثار بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان القيروان 5-6-7 ديسمبر 2011، ص 57-76.

AUMASSIPE Ginette, 2017 « Sédentaires et nomades dans la préhistoire saharienne », Ben Nasr J., Araar M. & Boukhchim N., (éds.), Campagnes et archéologie rurale au Maghreb et en Méditerranée, actes du sixième colloque international (kairouan 14-15-16 avril 2016), p. 11-20), Tunis.

ELLEFI (Mohamed), 2016ة L'Arzugitana: recherches d'histoire et d'archéologie sur une entité africaine de l'antiquité tardive, Thèse de Doctorat sous-direction de Abdellatif Mrabet, Sousse.

Jaafar ben Nasr, tarek Ben Fraj, Ridha Bousouffara, Nouri Boukhchim, Marwa Marnaoui, Sahbi Jawadi, Paolo Anagnoustou, Emmanuele Cancelleri, Marco Carpenteiri, Giovanni Destro Bisol, Enrico Lucci, Savino Di Leria, « Climat, environnement et société de la Préhistoire du sud tunisien: résultats préliminaires et perspectives de la recherche », 2016, *Cartagiinestudi e Ricerche, I, sezione, conferenze, seminari e sedutescientifiche, p. 1-13.*

Ghaki M. et Paris F, 2013 « Les monuments mégalithiques du sahara tunisien, état de la question » Boukhchim N., Ben Nasr J. & El Bahi A., (éds.), Kairouan et sa région Nouvelles recherches d'archéologie et de patrimoine (1-4 Avril 2009) CPU et FLSHK, p. 49-66.

PREVOST (V,), 2012 « L'apport des sources ibadites à la toponymie médiévale du Nafzawa (sud Tunisien » ,AAM, 19, p, 361-377.

PREVOST (V,), 2009, « Les mosquées ibadites du Maghreb », REMMM, 125, p. 217-232.

TROUSSET (P.), 1974 *Recherches sur le Limes Tripolitanus du Chott el-Jerid à la frontière tunisolibyenne,* Paris.

Savino Di Leria, Paolo Anagnoustou, tarek Ben Fraj, Jaafar ben Nasr, Nouri Boukhchim, Ridha Bousouffara, Hedi Bel Haj Brahim, Emmanuele Cancelleri, Marco Carpenteiri, Franchesca Castorina, Giovanni Destro Bisol, Enrico Lucci, Giorgio Manzi, Marwa Marnaoui, Andria Monaco, Mohammed Ouaja, Sahbi Jawadi, Marie Anne Tafuri, 2017 « First Archeologicol investigations in the Chott el jerid Area, Southern Tunisia » in *Scienze dell'Antichità.p. 3-19.*